

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم

وأنتم الأعلون (*)

منذ كنا طلاباً في المرحلة الابتدائية بالأزهر الشريف ، ونحن مشغولون بقضية المسلمين الأولى ، قضية أرض النبوات والمقدسات ، أرض فلسطين .

وكان مما أكد اهتمامى بهذه القضية : أنى انتسبت مبكراً إلى مدرسة رجل كانت هذه القضية من أكبر شواغله ، وفى مقدمة اهتماماته ، تلك هى مدرسة حسن البنا الذى كان من الرواد الذين نوروا العقول ، وألهبوا العواطف ، من أجل فلسطين والمسجد الأقصى .

كنا نسير المظاهرات الصاخبة ، ونلقى الخطب النارية ، وننشئ القصائد الحماسية ، لإلهاب المشاعر ، وتحريك الشعوب ، وتجنيد القوى والطاقات من أجل فلسطين ، وخصوصاً فى الثانى من نوفمبر كل عام : ذكرى وعد (بلفور) الذى قيل فيه : من لا يملك وعد من لا يستحق !!

وقد علق على هذا الوعد الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين بقوله : إن فلسطين ليست وطننا بغير شعب حتى تستقبل شعباً بغير وطن !!

(*) نشرت هذه الكلمة فى الصحف القطرية بعد توقيع (اتفاق أوسلو) المشؤوم.

وحينما فتح باب التطوع سنة ١٩٤٨م ، بادرنا إلى التدريب من جهة ، وإلى تعبئة مشاعر الجماهير من جهة أخرى ، وذهب من إخواننا وزملائنا إلى أرض المعركة من ذهب ، واستشهد من ادخر الله له الشهادة ، وسيق إلى المعتقل من كتب الله له الحياة ، وشهدنا اندحار الجيوش العربية السبعة أمام عصابات اليهود ، بخيانات الخائنين ، وتآمر المتآمرين .

إسرائيل المزعومة ! :

وهكذا قدر لجيلنا أن يشهد سلسلة دامية الحلقات من المآسى ، فى قضية فلسطين .

شهدنا قرار التقسيم سنة ١٩٤٧ ، الذى رفضناه بالإجماع ، لأن أحدًا لا يقبل تقسيم داره بينه وبين غاصب ظالم . ثم تمنينا لو قبلنا ما رفضناه بعد أن جرى ما جرى .

ثم شهدنا قيام دولة (إسرائيل) فى ١٥/٥/١٩٤٨ ، وإخراج مئات الألوف من أبناء فلسطين من ديارهم ، وتشريدهم فى الأرض .

شهدنا قيام دولة (إسرائيل) التى ظللنا سنوات عدة نطلق عليها اسم (إسرائيل المزعومة) ثم خجلنا من أنفسنا ، حين كانت هذه المزعومة تصول وتجول على كل الجبهات ، ولا نملك نحن إلا الشجب والشكوى إلى مجلس الأمن ! فحذفنا وصف (المزعومة) بعد أن أوشكنا أن نكون نحن (المزعويمين)!!

شهدنا النكبتين الكبيرتين : النكبة الأولى سنة ١٩٤٨ ، والنكبة الثانية ١٩٦٧ ، التي احتلت بها إسرائيل ما بقى من فلسطين : الضفة الغربية بما فيها القدس ، وغزة ، إضافة إلى سيناء والجولان وجنوب لبنان .

فصل جديد فى المأساة :

ولكن قضاء الله لهذه الأمة ، أنها لامتوت ، وأنها أمة ولود لا تزال تنجب الأبطال ، الذين لا يدعون الراية تسقط أبدا ، فقامت حركات النضال والجهد لتحرير الأرض المقدسة ، التى بارك الله فيها للعالمين ، ابتداء من (فتح) إلى حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وقامت (الانتفاضة) التى بهرت العالم ، وزلزلت إسرائيل ، وما ذلك إلا لأنها انتفاضة إسلامية ، كانت منطلقاتها المساجد ، وراياتها المصاحف ، وشعاراتها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ؛ ونشيد أشبالها : خير ، خير ، يا يهود ، جيش محمد سوف يعود!!.

ولكن ها نحن اليوم نشهد فصلا جديداً ، لم يكن ليخطر لنا على بال ، قلب كل الموازين ، ونقض كل القواعد ، وغير كل الثوابت التى أصبحنا وأمسينا عليها نصف قرن من الزمان ، ونشأنا على ذلك أطفالنا ، وربينا عليه شبابنا ، فشب عليه الصغير ، وهرم عليه الكبير : أن إسرائيل خطر عسكرى وسياسى ودينى واقتصادى وثقافى ، وصنفت فى ذلك مؤلفات ، وأنشئت لذلك مراكز ومؤسسات ، وعقد له ندوات ومؤتمرات .

وكم بدأنا وأعدنا فى حقنا فى الأرض كل الأرض ، وأن العدوان لا يكسب المعتدى شرعية ، وما قام على الباطل فهو باطل . إلخ . ثم تخاذل المتخاذلون ، فإذا هم يرضون بالواقع بعد عدوان ١٩٦٧/٦/٥م وإذا هم يبنون سياستهم على مجرد إزالة آثار العدوان ، والرضا بالعودة إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧م أى أن العدوان الجديد كأنما أضفى الشرعية على العدوان القديم! عدوان (١٩٦٧ م) أنسى عدوان (١٩٤٨ م) .

ثم زاد الطين بلة - كما يقولون - فرضى من رضى بمجرد حكم ذاتى تحت سلطان إسرائيل !!.

ثم انتهى المطاف إلى ما شهدناه اليوم من قبول الدون ، والقرار الهون : من تجزئة الحل ، وإسقاط القدس ، والتنازل عن جزء من دار الإسلام لغاصبيه ، والسكوت عن حق الملايين الثلاثة أو الأربعة فى العودة إلى ديارهم المغصوبة ، ومد يد المصافحة إلى أبطال دير ياسين وصبرا وشاتيلا وغيرها . كل هذا فى مقابل ٢٪ من مجموع أرض فلسطين ، على نحو ما قال العربى قديما : إذا ما لم تكن إبل فمعزى !!.

أنا أعلم أن الشعوب قد تأتى عليها ساعات توقع فيها على هدنة أو صلح وهى كارهة مرغمة ، بعد اندحارها فى حرب لا تملك بعدها إلا التسليم . كما فعلت اليابان بعد ضربها بالقنابل الذرية ، وكما فعلت ألمانيا بعد هزيمة هتلر .

ولكن أن يستسلم الفارس ، وهو شاهر سيفه ، حامل رمحه ،
ممتط جواده ، وأن يعتبر استسلامه لعدوه مجداً وفتحاً يحسب له ،
ويغبط عليه ، ويعد تنازله عن جزء من وطنه مكسباً ، ويطالب
الحناجر أن تهتف باسمه ، والأيدى أن تصفق له . فهذا ما لم
نعهده فى تاريخ الأبطال والفرسان إلا حين يستحيل الفارس إلى
دمية ، والفرس إلى حمار ، والسيف إلى عكاز! .

إشفاق على أبنائنا :

إننى أشفق على أبنائنا وشبابنا الذين حفظناهم أناشيد الجهاد ،
وأغاني العودة وعلقنا قلوبهم وعيونهم بالمسجد الأقصى ، وقبة
الصخرة ، ومسرى الرسول ، وأولى القبلتين ، وصبنا فى عقولهم
وضمائرهم ووجدانهم كراهية بنى صهيون وظلم إسرائيل التى
قامت على اغتصاب الأرض ، وانتهاك العرض ، وتشريد الأهل .
فإذا بنا - ما بين عشية وضحاها - نشطب هذا كله ، ونسخره بجرة
قلم ، ليصبح العدو صديقاً ، والاغتصاب مشروعاً ، والعدوان
مقبولاً ، مع أن الوطن لم يتحرر ، والمشرّد لم يعد إلى أرضه ؛
والأقصى لم يزل أسيراً ، فكأننا نقول لهذا الجيل المسكين :
لا تصدقونا فيما كنا نقول لكم ، إن الذى كنا نسميه بالأمس جهاداً
وبطولة ونضالاً أصبح اليوم عنفاً وإرهاباً ، والذى كنا نسميه
سفاحاً غداً اليوم شريعاً . لا يوجد شيء ثابت عندنا ، كل ما كان
حقاً يمكن أن يكون باطلاً ، اقتحوا النوافذ لتهدب عليكم نسيمات

إسرائيل ، وافتحوا الأبواب لتدخل عليكم بضائع إسرائيل ، وبنات إسرائيل أيضاً ، و « إيدز » إسرائيل !!.

حفل التوقيع البائس :

لقد أكد رابين عشية سفره إلى واشنطن للتوقيع على الاتفاق المزعوم للسلام أن القدس ستظل عاصمة لإسرائيل ، وللشعب اليهودى إلى الأبد ، وأن العلم الفلسطينى لن يخفق فوقها يوماً من الأيام !! وهو بهذا يبلغ رسالة إلى الفلسطينيين يؤكد فيها أحد الثوابت التى لا تقبل التغيير ، أو التعديل فى السياسة الإسرائيلية ، فعلى الفلسطينيين أن ينسوا قضية القدس ، ويشطبوها من خريطتهم . . وأكد ذلك فى حفل التوقيع حين قال أمام العالم : نحن قادمون من القدس ، العاصمة التاريخية والأبدية للشعب اليهودى !!.

ولقد ذكر أبو عمار ، وأبو مازن فى كلمتهما : أنهما يأملان أن تحل المشكلات الصعبة المعلقة فى المرحلة القادمة ، وهى : مشكلات القدس واللاجئين والمستوطنات والحدود ، فإذا كانت هذه هى المشكلات المعلقة ، فما المشكلات التى تم حلها إذن ؟!

الفرق بين رجلين وكلمتين :

والحق أنى كنت أتابع حفل التوقيع الذى يروونه عرساً ، ولا أرى فيه إلا مأتماً !.

كنت أقارن بين الموقفين وبين الكلمتين : موقف عرفات ورايين ، وكلمتيهما ، فأجد - وأسفاه - فرقاً شاسعاً .

كان موقف رابين موقف المتفضل المتنازل ، وموقف عرفات موقف الممتن الشاكر ! حتى إنه ختم كلمته بتكرار كلمة : شكراً (بالإنجليزية) ثلاث مرات ! .

لم ينس رابين أن يتحدث عن تاريخهم القديم والحديث ، وكفاحهم الطويل ، وشهادتهم وضحاياهم ، تمهيداً لحديثه عن السلام ، واستشهد بالتوراة ، وذكر فقرات من (سفر الجامعة) ، ودعا إلى الصلاة من أجل السلام ، ولم يكن هم عرفات إلا المديح والشكر والعرفان ، فلم يلتفت إلى شيء من قبيل ما ذكره رابين ، ولم يستشهد بأية من القرآن ، ولم يجر علي لسانه كلمة واحدة عن الإسلام! ولم يذكر المسجد الأقصى بعبارة واحدة!!

انتهاز رابين الفرصة ، وعلم أن العالم كله يشاهده ويستمع إلى كلمته ، فضمنها ما يدعم قضيته ، ويحشد عواطف العالم معه ، فتحدث - وهو القاتل - بلهجة الضحية ، وبدا - وهو الظالم - فى صورة المظلوم ^(١) ! .

(١) ذكر الكاتب الكبير الأستاذ : محمد حسنين هيكل فى كتابه القيم (سلام الأوهام) - وهو الجزء الثالث من كتابه : المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - ما قال بعضهم : إن الضحية شرحت مأساتها بأسلوب الموظفين الحكوميين، وأما الجلاد فقد تحدث عن نفسه بأسلوب الشهداء ! وقال آخر: إن هناك خطأ حدث . فخطاب رابين كان فى الأصل مكتوباً لعرفات . وخطاب عرفات كان لابد أن يكون خطاب رابين ! ثم قال ثالث : إن رابين تحدث عن المأسى الإنسانية التى عاشها الشعب الإسرائيلى . فى حين أن عرفات بدا وكأنه يعتذر نيابة عن الشعب الفلسطينى وعن نفسه ! (صـ ٣٣٠) .

كان رابين صارم التقاطيع ، متجهم الوجه ، وكان عرفات ضاحك الوجه ، صدقاً أو تظاهراً ، ولا أدري علام يضحك؟ إن كانت الظروف أرغمته على هذا الاتفاق الرخيص - فقد كان الواجب أن يبكي ، فإن لم يجد بكاء تباكى ! أو بدا على الأقل كما بدا خصمه .

لقد عرف تاريخ العمل الفلسطيني من قبل (أيلولآ أسود) واليوم نراه يواجه (أيلولآ آخر) أشد سواداً !.

سلام السراب أو سراب السلام :

فى معرض الكتاب بالدوحة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٩٢م ، وفى أمسية شعرية ألقىت قصيدة عن (سلام السراب أو سراب السلام) عبرت بها نحو مشاعرى عن مسيرة السلام المزعومة ، قلت فيها :

فيا عجباً لمن يجري	وراء سرابه النفسى
يظن له به رياء	ويرجع فارغ الكأس
يفرط فى دم الشهدا	ء يا للعار والبؤس
يبيع الأرض والتاريخ	خ بالأرخص من فلس
بحكم فى حمى صهيو	ن يا للثمن البخس
فلا دولته قامت	ولا أبقى على النفس
وصاع جهاد قرن كا	مل دفنوه فى الرمس
جهود كلها ذهبت	« كأن لم تغن بالأمس »

فما معنى فلسطين بلا أقصى ولا قدس؟

فلسطين بلا قدس كجثمان بلا رأس

وكنا نحسب الحكم الذاتى فى حمى صهيون - الذى أنكرناه وعارضناه - يمهد لدولة فيما بقى من فلسطين ، فإذا الجمل يتمخض لا عن فار ، بل عن ضرصور يسمى (السلطة الفلسطينية).
فأين حق الفلسطينيين فى إقامتهم دولتهم المستقلة على تراب وطنهم الحر؟.

إنه الوهن :

إنه (الوهن النفسى) الذى حذر منه النبى ﷺ ، الأمة فى فترات (الغثائية) من تاريخها ، حين قال : «ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» . رواه أحمد وأبو داود .

وهو الذى حذر منه القرآن بقوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٥) ، ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ (النساء: ١٠٤) فالمتاعب مشتركة ، والمعاناة لنا ولهم . ولكن فرق بين من يعانى فى سبيل الله والحق والعدل ، ومن يعانى فى سبيل الطاغوت والباطل والظلم !

إننا لا نزايد على الفلسطينيين ، لسنا ملكيين أكثر من الملك
كما يقال ، ولكن هناك حقائق يجب أن تعرف وتذكر وتؤكد ،
وهي :

١- إن الفلسطينيين لم يؤخذ رأيهم في هذا الأمر الجلل الذي غير
ثوابتهم ، ونقض تاريخهم ، فلم تعقد لذلك مؤتمرات ، ولا دعى
المجلس الوطنى الفلسطينى (السلطة العليا للفلسطينيين).

٢- إن فصائل عديدة وكبيرة - إسلامية ووطنية - من الفلسطينيين
رافضة لهذا الحل ، بل الانقلاب المفاجئ ، وتراه استسلاماً
لا سلاماً ، وتنازلاً عن حقوق ضخمة فى غير مقابل .

وشخصيات كبيرة رفضت التوقيع على هذا الهوان ، منهم
أعضاء فى اللجنة التنفيذية ، مثل فاروق قدومى الذى قال :
لا أوقع على شهادة وفاة قضية فلسطين! ، ومنهم أعضاء استقالوا
مثل عبد الله الحورانى الذى قال بالحرف الواحد :

إنى أرى هذا الاتفاق تنازلاً عن حقوقنا الوطنية والتاريخي ،
وقرارات مجالسنا الوطنية : فى العودة وتقرير المصير ، وإقامة
الدولة الفلسطينية المستقلة ، وتثبيتاً للاستيطان ، وتجاوزاً لحقوق
الإنسان الفلسطينى ، واتفاقية جنيف الرابعة ، وإسقاطاً لحقنا نحن
الأربعة الملايين لاجئ فلسطيني فى العودة إلى وطننا ، وفق قرار
الأمم المتحدة رقم (١٩٤) لعام (١٩٤٩ م) لأنه يتجاهل ذلك
تماماً . إلخ ما قال ، وما أبلغ وأصدق ما قال .

٣- إن فلسطين - ليست ملك الفلسطينيين وحدهم ، والقدس ليست قدسهم وحدهم ، والأقصى ليس أقصاهم وحدهم ، إنها ملك المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وليست ملك هذا الجيل وحده ، بل ملك الأجيال الإسلامية إلى أن تقوم الساعة . فإذا وهن الفلسطينيون أو طائفة منهم لما أصابهم من لأواء وضعفوا واستكانوا ، فواجب المسلمين فى كل مكان أن يهبوا لإنقاذ القدس ، فريضة من الله . والذى أنقذ الله على يديه القدس قديما ، لم يكن فلسطينيا ولا عربيا ، بل كان بطلا إسلاميا كردى الأصل ، عربيه الإسلام .

٤- إن المعركة بيننا وبين بنى صهيون مستمرة ، نقاتلهم ويقاتلوننا ، حتى تأتى المعركة الفاصلة التى نبأنا بها من لا ينطق عن الهوى ، وهى التى يكون كل شىء فيها معنا ضد يهود ، حتى الشجر والحجر ، روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر : يا عبدالله ، هذا يهودى ورائى فاقتله » !! .

وروى مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » .

٥- إن الرباط مستمر ، والجهاد ماض ، فى أرض النبوات ،
ومسرى الرسول الكريم ، حتى يأذن الله وحده بالنصر ،
وينجزه وعده .

روى الإمام أحمد فى المسند ، والطبرانى بسند رجاله ثقات عن
أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتى على
الدين ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من جابههم - إلا
ما أصابهم من لأواء (أى من أذى) حتى يأتى أمر الله وهم على
ذلك . قيل : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : بيت المقدس ،
وأكناف بيت المقدس ».

لماذا سارعت إسرائيل إلى الاتفاق ؟ :

إن إسرائيل قد سارعت بإقامة هذا الاتفاق لتحقيق أمور ثلاثة
تهمها :

الأول : ضرب الصلوة الإسلامية فى فلسطين وفى العالم
العربى ، بل فى العالم الإسلامى ، وقد كشفوا عن ذلك فى
كلماتهم حين تحدثوا عن قلقهم من تنامى خطر الأصولية
الإسلامية ^(١) ، وقد قال بيريز فى زيارته للهند : إننا نضع أيدينا فى
أيديكم للوقوف فى وجه الأصولية الإسلامية المتشددة ، أى فى
قضية كشمير وجامو .

(١) انظر : فصل (صيحة الخطر الإسلامى) من كتاب هيكمل (سلام الأوهام)
ص ٢٢١ وما بعدها .

وقد نقلت وكالة رويتر بُعيد الاتفاق : حديثاً لمسؤول إسرائيلي قال فيه : إننا لو تباطأنا عن هذا الاتفاق فقد نفاجأ بعد ثلاث سنوات أو أربع بقوة إسلامية تملك صواريخ بعيدة المدى ، وربما تملك القنبلة النووية .

وإسرائيل تريد أن تكون هي القوة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تملك الصواريخ ، وتحفظ وحدها بترساتها النووية .

الثانى : الاختراق الإسرائيلى للعالم العربى ، ثم العالم الإسلامى كله ، ليصبح سوقاً مفتوحة لبضائعها ، ومصنوعاتها ، ولغزو خبراتها ، وغزو نساها أيضاً . فإسرائيل - كما قال بيريز - تبحث عن الثروة والقوة ، فإذا ألغيت المقاطعة وكسر الحاجز النفسى ، فتح الطريق أمام إسرائيل ، لتكسب على كل صعيد .

الثالث : الأمل فى أن يتصارع الفلسطينيون فيما بينهم ما بين مؤيدين للاتفاق منتفعين من ورائه ، ومعارضين له ، رافضين له شكلاً ومضموناً ، وأن يتحاوروا بينهم بلغة السلاح ، لا بالألسنة والأقلام . وبذلك يصفى بعضهم بعضاً ، وإسرائيل تتفرج مشرقة الأسارير !

الصحة الإسلامية لن تموت :

ونود أن نقول لإسرائيل : إن الصحة الإسلامية لن تموت بإذن الله ، وأن الأصولية ستزداد قوة وإصراراً ، كلما هاجمتها القوى المعادية للسلام .

وعلينا أن نوعى قومنا بما يدبر لهم ، حتى يقفوا كما وقف
الشعب المصرى من قبل ضد التطبيع ، وعلينا كذلك : أن نناشد
أخوتنا الفلسطينيين أن يتقوا الله فى أنفسهم ، وأن يحذروا من أى
قطرة دم تراق على أيدى فئة منهم ، وألا يكونوا سياط عذاب فى
يد إسرائيل - تجلد بها ظهر الانتفاضة المؤمنة - ما دام المسجد
الأقصى أسيراً ، والملايين مشردين .

دعوة لعلماء المسلمين :

ثم إنى أدعو الأحرار من علماء المسلمين ، ودعاة الإسلام ،
ومفكره : أن يسارعوا بالاجتماع ويتنادوا لإنقاذ الأقصى ،
وليقولوا كلمتهم فيما يجرى من أحداث ، وقد قالوها من قبل
منفردين ، فليقولوها اليوم مجتمعين .

* * *